مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (7) العدد (3) 2023
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (7) No. (3) 2023

العلاقات المرداسية–الفاطمية(سياسياً–عسكرياً)

***د. عامر غسان الشدود**

(تاريخ الإيداع 3/13 /2023. قُبِل للنشر في 6/5 /2023)

□ ملخّص □

أدى وجود خلافتين في العالم الإسلامي العباسية والفاطمية، إلى انقسام العالم الإسلامي وإضعافه سياسياً وعسكرياً واقتصادياً، كما أدى إلى التفرقة وظهور عدد من الدويلات التي انفصلت عن جسد هاتين الخلافتين، ولكنها بالمحصلة، وحتى تبقي على وجودها، كان لابد لها من الانضمام لإحدى هاتين الخلافتين، ومن هذه الدويلات، الدولة المرداسية في حلب، والتي تشكلت على يد صالح بن مرداس، الذي أسس لحكم قوي متوارث لأبنائه من بعده، وقد أعلن صالح الخضوع للخلافة الفاطمية لتكون عوناً له على الصمود، وقد استمر الحال على ما هو عليه حتى بعد وفاة صالح ووجود أبنائه من بعده، باستثناء الخلافات والتوترات التي حصلت بين المرداسيين والخلافة الفاطمية، والتي استمرت حتى انهيار هذه الدولة وانطفاء نجمها.

كلمات مفتاحية:الخلافة الفاطمية– الخلافة العباسية– الانقسام الإسلامي– بنو مرداس– انهيار الدولة.

*دكتوراه في تاريخ العرب والإسلام– جامعة تشرين– اللاذقية –سورية.

مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (7) العدد (3) 2023
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (7) No. (3) 2023

The Mirdasid-Fatimid Relations (politically and militarily)

*DR: : Amer Ghassan Al Shadoud

(Received 13/3 /2023 Accepted 5/6/2023)

□ ABSTRACT□

The existence of two caliphates in the Islamic world, Abbasid and Fatimid, led to the division of the Islamic world and weakened it politically, militarily and economically. Among these states was the Mirdasid state in Aleppo, which was formed by Salih ibn Mirdas, who founded a strong rule inherited to his sons after him. After him, with the exception of the differences and tensions that occurred between the Mirdasids and the Fatimid caliphate, which continued until the collapse of this state and the fall of its star

Keywords:The Fatimid caliphate - the Abbasid caliphate - the Islamic division - the Banu Mirdas - the collapse of the state

*PhD in the history of Arabs and Islam - Tishreen University - Lattakia - Syria

مقدمة:

في خضم الصراع الفاطمي–العباسي، الذي استنفذ قدرة الخلافتين الإسلاميتين العسكرية والسياسية والاقتصادية، وانقسام مركز الخلافة الإسلامية، كان لابد من وجود ساحة تنافس تنحصر بها الصراعات، كمنطقة بلاد الشام التي كانت في الموقع الوسط بين خلافة بغداد وخلافة القاهرة، فكانت مسرحاً للحرب بين الخلافتين، إلا أن ضعف الخلافتين وفساد الولاة وتدبير الأمراء، أدى إلى نشوء بعض الدويلات الصغيرة بزعامات قبلية عشائرية، كالدولة المرداسية التي نشأت على يد صالح بن مرداس، الذي انحاز للخلافة الفاطمية كونها الأقوى نسبياً، ليكلفه الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله بمحاربة بعض الأمراء المتذبذبين بالولاء له، وتمكن بذلك ابن مرداس من توسيع رقعة دولته وتوطيد نفوذه عند الفاطميين، إلا أن الأمر تبدل مع وفاة الحاكم بأمر الله وتسلم ابنه الصغير الظاهر لإعزاز دين الله، حيث شعر ابن مرداس بضرورة كسب حلفاء له في بلاد الشام ليكونوا عوناً له في مشروعه الكبير في إقامة كيان مستقل له ولأبنائه من بعده، فقام بالتحالف مع البيزنطينيين في بلاد الشام وقتال الفاطميين، ولكنه مع قيامه بهذا الأمر لم يقطع الخطبة للخليفة الفاطمي، وعمل على حفظ العلاقات الدبلوماسية بين الطرفين.

أهمية البحث: تأتي أهمية البحث من خلال إلقاء الضوء على أوضاع العالم الإسلامي في تلك الفترة، ومحاولة بعض الأمراء استغلال ضعف الخلافتين العباسية والفاطمية من أجل تشكيل دولة مستقلة لهم ولأبنائهم من بعدهم، حتى لو كلفهم ذلك التعاون مع الإفرنج في وجه المسلمين.

أهداف البحث: يهدف البحث إلى إلقاء الضوء على العلاقات العسكرية والسياسية المرداسية–الفاطمية، وكيفية تبدل هذه العلاقات في مرحلتي القوة والضعف، بالإضافة إلى الاطلاع على العلاقة بين المرداسيين والبيزنطيين وأثرها على العلاقة مع الفاطميين.

منهج البحث: سيعتمد البحث المنهج الوصفي في دراسة أحداث المرحلة، وفي تحليل تلك الأحداث وفق منهج علمي، وقد استعان البحث بعدد من المصادر التي عاصرت تلك الفترة، والمراجع التي أسهمت في إغناء البحث بالمعلومات المهمة.

إشكالية البحث:

عرض البحث العديد من الإشكاليات التي سنحاول الإجابة عنها منها:

1–كيف كانت أحوال الخلافة الإسلامية في تلك الفترة؟

2–كيف كانت علاقة بني مرداس مع الخلافتين العباسية والفاطمية؟

3–ما أسباب انقلاب ابن مرداس على الخلافة الفاطمية بعد وفاة الحاكم بأمر الله؟

4–كيف كانت علاقة المرداسيين مع الخلافة الفاطمية في فترتيّ القوة والضعف؟

5–كيف كانت علاقة المرداسيين مع الفاطميين في ظل التقارب المرداسي–البيزنطي؟

نسب آل مرداس:

يعود المرداسيون أصولاً إلى قبيلة بني كلاب من عرب القيسية العدنانية، ويرجع نسبهم إلى نزار بن معد بن عدنان[1]، وينتمون بالتالي إلى عشائر أهمها: داود، عامر، بني أبي بكر وغيرها[2]، وكانت مضارب بني كلاب بالقرب من يثرب إلى أن انتقلوا إلى اليمامة حيث أسسوا دولة فيها، وانتقلوا في حركة شبه جماعية إلى أطراف العراق والشام بعد أن أزاحوا سكانها من قبائل مضر وربيعة، وهم أهل غنم وخيل وإبل[3]، وشغل بنو كلاب القيسيون دوراً مهماً في بلاد الشام في العصر الأموي إلى جانب قبيلة كلب[4]، وفي أوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ، انفصل بنو مرداس عن مرابعهم جنوب العراق وتوجهوا إلى شمال بلاد الشام بالقرب من حلب ربما بسبب الاضطرابات التي أحدثتها غارات قرامطة البحرين في سواد العراق[5]، وكانت لهم غزوات عظيمة ومشهودة، وغارات لا تعد على بلاد الروم[6]، وأسهموا إسهاماً مباشراً في الأحداث التي وقعت في شمال بلاد الشام، فقد ساعدوا سيف الدولة الحمداني في معركته ضد كافور الاخشيدي سنة(335هـ/946م)، وبذلك أصبحوا رعايا لبني حمدان يؤدون الطاعة والأتاوات لهم، وينفرون معهم كسائر البدو، كذلك يخرجون عن طاعتهم متى انشغل الحكام عنهم في الحروب أو في فترات الضعف، فقد خرجوا على سيف الدولة الحمداني عند انشغاله بحروب الروم، ليوقع بهم بعد فراغه في سهول السلمية والرصافة والرقة، حيث ردم آبارهم وبدد شملهم حتى استأمنوا إليه[7].

وتغلب على بني مرداس صفة البداوة، حيث لا يدينون لأمير منهم يجمع كلمتهم، ولو انقادوا لواحد منهم لم يبقَ لأحد من العرب طاقة بهم، لأنهم من أشد العرب بأساً وأكثرهم ناساً.

أوضاع حلب قبل قيام الدولة المرداسية:

كانت مدينة حلب مثل غيرها من مدن الشام، تعيش الاضطرابات والفتن، بالإضافة إلى هجمات البيزنطينيين من جهة والفاطميين من جهة أخرى، وقد بدأت أحوالها تتدهور بعد وفاة صاحبها القوي سيف الدولة الحمداني، وضعف خلفائه وأبنائه وتحكم مواليهم بالسلطة دونهم حتى أصبحوا الحكام الحقيقيين لها، وتذبذبهم في الولاء بين الخلافتين الفاطمية والعباسية، مما جعل الخلافة الفاطمية تتطلع دائماً إلى ضم حلب وبالتالي شمال بلاد الشام، فقد أمر الخليفة الفاطمي العزيز بالله واليه على دمشق بنجوكتين بالاستيلاء على حلب وطرد صاحبها سيف الدولة الحمداني [8]، الذي استنجد بإمبراطور الروم باسيل الثاني عندما حاصرته الجيوش الفاطمية، فتوجه الإمبراطور إلى بلاد الشام ودخل حصن شيزر وحمص عنوةً، فارتد الجيش الفاطمي إلى دمشق، فتابع الإمبراطور باسيل سيره إلى طرابلس وضرب الحصار عليها، فصمدت في وجهه واستعصت

---

[1] ابن خلكان(أحمد بن محمد بن أبي بكر): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح(إحسان عباس)، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ج2، ص 487

[2] زكريا(أحمد وصفي)، عشائر الشام، دار الفكر، دمشق ، 1983م، ط2، ج1، ص 80

[3] ابن حوقل(أبو القاسم النصيبي): صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ، 1979م، ط1، ص 205

[4] بيطار(أمينة): موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين، دار دمشق للطباعة، بيروت ، 1980م، ط1، ص 248

[5] عبد المولى(محمد أحمد): بنو مرداس الكلابيون في حلب، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1985م، ط1 ص 11

[6] القلقشندي(أحمد بن علي): صبح الأعشى في صناعة الانشا، دار الكتب العلمية، بيروت ، 1987م، ط1، ج4، ص 238

[7] بيطار(أمينة): موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين، مرجع سابق، ص 249

[8] الانطاكي(يحيى بن سعيد): تاريخ الأنطاكي، تح(عمر التدمري)، جروس بروس، طرابلس ، 1990م، ط1، ص 166

عليه، فعاد إلى أنطاكية ومنها إلى القسطنطينية ليتوجه الخليفة الفاطمي العزيز بالله على رأس حملة برية وبحرية للاستيلاء على حلب، حيث أمر بإنشاء أسطول بحري، ولم يكد أن يجهز الأسطول حتى اشتعلت النيران نبه، مما أثر سلباً في نفوس المصريين، واتهموا عدداً من التجار البيزنطينيين الذين كانوا موجودين في مصر وقتل عدد منهم، وحدثت اضطرابات في القاهرة، وبعد تسوية أمور القاهرة خرجت الحملة البرية متوجهة إلى بلاد الشام، وعند وصولها إلى بلبيس اشتد مرض الخليفة وتوفي سنة(386هـ/996م)[1]، أما في حلب فقد توفي أبو الفضائل سعيد الدولة وقام مولاه لؤلؤ بانتزاع السلطة من ولديه علي وأبي المعالي شريف، وحكم باسمهما وقد استبد لؤلؤ بالحكم وأرسل ولدي سعيد الدولة إلى القاهرة أعلن طاعته للخليفة الحاكم بأمر الله[2]، وفي سنة (399هـ/1008م) توفي لؤلؤ وخلفه ابنه منصور الذي جدد الاعتراف بسلطة الخليفة الفاطمي وأقام الخطبة له، لينال لقب مرتضى الدولة ويمتد النفوذ الفاطمي إلى حلب[3]، ذلك النفوذ الذ أخذ يهتز مع تقلب مرتضى الدولة بالولاء بين الفاطميين والعباسيين مما أثار امتعاض الحاكم بأمر الله وبدأ بتحريض صالح بن مرداس وقومه على قتاله، إلا أن مرتضى الدولة اختلف مع غلامه فتح الذي كان والياً على قلعة حلب، وعندما أراد عزله وتعيين سرور مكانه، أعلن العصيان على أستاذه وسيده مرتضى الدولة وأخرجه من حلب مع أهله وأمواله ليتوجه إلى البيزنطينيين في أنطاكية[4]، طالباً الاعتراف الفاطمي ومقيماً الخطبة للحاكم بأمر الله ولينال لقب مبارك الدولة وسيدها مع ولاية صيدا وبيروت، وأمره الخليفة الفاطمي بتسليم حلب وقلعتها إلى أبي الحسن علي بن أحمد العجمي المعروف بالضيف، وتسليم صالح بن مرداس الأعمال والضياع التي اتفق مع مرتضى الدولة عليها سابقاً سنة(407هـ/1017م)[5]، فدخل الضيف حلب وأحسن السيرة فيها ورد للأهالي ما تم أخذه منهم، بعد أن أطلق الحاكم بأمر الله المكوس والمظالم عن أهل حلب، وأعفاهم من الخراج، وبالتالي خضع أهل حلب للنفوذ الفاطمي الموجه من القاهرة مباشرةً حوالي ثمانية أعوام(415-407هـ/1016-1024م)[6]، تنقلت بها حلب بأيدي نواب للخليفة الحاكم بأمر الله حتى سنة وفاته واستلام الظاهر لإعزاز دين الله للخلافة، فقام بتعيين أبو الحارث ثعبان بن محمد الكتامي والياً عليها ، وأبو الحارث موصوف الخادم والياً على قلعتها، وأبو أسامة عبد الله قاضياً لها، وبقيا يحكمان حلب حتى دخلها صالح بن مرداس سنة(415هـ/1024م)[7].

بروز صالح بن مرداس وأعماله قبل قيام الدولة المرداسية:

كان صالح بن مرداس رجلاً من أسرة الإمارة لبني عبدالله بن أبي بكر بن كلاب، التي كانت تعيش في منطقة قنسرين، وكانت أمه من بني زوقل، إحدى عشائر بني كلاب، ولا تذكر المصادر تاريخاً لميلاد صالح،

---

[1] المقريزي(أحمد بن علي):إتعاظ الحنفاء بأخبار الائمة الفاطميين الحنفاء، تح(جمال الدين شيال)، دار الفكر، القاهرة، (د.ت)، ص 276

[2] ابن خلدون(عبد الرحمن): تاريخ ابن خلدون، مراجعة(د.سهيل زكار)، دار الفكر، بيروت، 1988م، ط2، ج4، ص 271

[3] أبو الفداء(عماد الدين اسماعيل): المختصر في أخبار البشر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (د.ت)، م1، ص 35

[4] ابن العديم(عمر بن أحمد بن أبي جرادة): زبدة الحلب من تاريخ حلب، تح(سهيل زكار)، دار الكتاب العربي، دمشق، 1997م، ط1، ج1، ص 179

[5] أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ، م1، مصدر سابق، ص 36

[6] طقوش(محمد سهيل): تاريخ الفاطميين في شمال افريقية ومصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، 2001م، ط1، ص 318

[7] الغزي(كامل البالي الحلبي): نهر الذهب في تاريخ حلب، تح(محمود فاخوري)، دار القلم العربي، حلب، 1993م، ط1، ج2، ص 52

وجاءت شهرته السياسية من بلدة الرحبة حيث تمكن رجل من أهلها يعرف باسم انب محكان، وكان يشغل وظيفة رئيس للمدينة ومقدم لأحداثها من طرد الوالي الفاطمي المعين من قبل الحاكم بأمر الله واستلام حكم المدينة، ووسط الصراعات التي كانت تدور حول الرحبة لأهميتها الإستراتيجية، لم يتمكن ابن محاكن من السيطرة تماماً على المدينة وأعمالها، فطلب من صالح بن مرداس صاحب الحلة تقديم الدعم والحماية له ولبلدته، مقابل مبلغ من المال وتزويجه من ابنته، وبعد مدة ثار أهل عانة على ابن محكان، فطلب من ابن مرداس تنفيذ الاتفاق المبرم فقاد ابن مرداس قواته وتوجه إلى عانة يرافقه ابن محكان ليضربا الحصار عليها، وفي الحصار دبر ابن مرداس أمر اغتيال ابن محكان ليعود مسرعاً إلى الرحبة ويدخلها سنة(399هـ/1008م)[1]، ليجعلها نواة الدولة التي ربما كان يفكر في إقامتها، ومنطلقاً للتوسع منها بعد أن رسخ قواعده فيها، بالوقت الذي أدرك فيه بأنه لن يتمكن من ذلك ما لم ينحاز إلى إحدى الحلافتين الإسلاميتين الفاطمية والعباسية، ليختار منهما الأقوى ، وقام بالانحياز للخلافة الفاطمية، وخطب للخليفة الحاكم بأمر الله الذي اعترف بسلطانه ونال لقب أسد الدولة[2]، وليقوم الحاكم بأمر الله بتكليفه بقتال حاكم حلب مرتضى الدولة نصر بن لؤلؤ المتردد في الولاء للفاطميين، إذ قبل ابن مرداس المهمة بعد أن التمس من أهالي حلب المساعدة على التخلص من ظلم ابن لؤلؤ، لكن ابن لؤلؤ قام بإغراء ابن مرداس وقومه بإقطاعات خارج حلب مقابل انصرافهم عنه[3]، إلا أن مرتضى الدولة أخذ يماطل بتنفيذ وعوده، مما دفع ابن مرداس وقومه إلى التضييق عليه، حيث عاثوا فساداً في إقطاعات حلب، مما جعل مرتضى الدولة يظهر لهم الرغبة في تسوية الأمر، وطلب منهم الاجتماع به، فدخل حلب حوالي (700) رجل منهم وعلى رأسهم صالح بن مرداس، فأغلق ابن لؤلؤ الأبواب وقبض عليهم وزجهم في السجن، بعدما قتل البعض منهم وذلك في سنة(402هـ/1011م)، وكذلك أجبر صالح على طلاق زوجته طرود(أم عطية)، وتزوجها هو، إضافةً إلى الإساءات المستمرة له، لذلك عزم صالح بن مرداس على الهروب من السجن[4]، وفي رواية ابن العديم لهروب صالح قال: ونقب حائط السجن، وخرج منه في الليل وتدلى من القلعة إلى التل، وألقى بنفسه فوقع سالماً[5]، وهذه الرواية تميل إلى الخيال أكثر منها إلى الحقيقة إذا ما قيست مع طبيعة السجون المبنية من الحجر القاسي، وأحوال السجين داخل سجنه والقيود التي تكبل يديه وأقدامه فكيف تمكن صالح من ذلك.

أما الأنطاكي فقد روى أن آمر السجن وكان اسمه فتح قد عمل على تهريب ابن مرداس لكنه لم يذكر ثمن هذه الصفقة، وهذه الرواية هي الأقرب للعقل[6]، مهما يكن من أمر فإن ابن مرداس قد تمكن من الوصول إلى مضارب قومه، وجمع قوة لمحاربة مرتضى الدولة، والذي عندما سمع بهروب ابن مرداس عزم على مطاردته وقتله قبل أن يستفحل أمره، فالتقى الطرفان في موقعة جنوب شرق حلب انتصر فيها صالح بن مرداس ووقع مرتضى الدولة في الأسر، إلا أن صالح لم يستطع دخول حلب، فرأى أنه من الأفضل له عقد صلح مع

---

[1] زكار(سهيل): إمارة حلب، دار الكتاب العربي، دمشق، د.ط، د.ت، ص 71

[2] ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج4، مصدر سابق، ص 271

[3] بيطار(أمينة): موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين، مرجع سابق، ص 252

[4] ابن الأثير(محمد بن محمد الشيباني): الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، 1997م، ط1، ج7، ص 260

[5] ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، مصدر سابق، ص 181

[6] الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، مصدر سابق، ص 175

مرتضى الدولة، وبعد مفاوضات تم الصلح على شروط ابن مرداس وهي مئتا ألف دينار، ومئة ألف ثوب، وإطلاق سراح جميع أسرى بني كلاب من الأسر[1]، وإثر هذه الأحداث أصبح صالح بن مرداس أقوى شخصية في قبيلة بني كلاب الذين دانوا ولأول مرة بالطاعة لرجل منهم،والتفوا حوله فتوهجت في نفسه نزعة الاستقلال وتكوين إمارة مستقلة يحكمها ومن بعده أولاده ووجه اهتمامه نحو حلب لتكون في مقر الإمارة[2].

قيام الدولة على يد صالح بن مرداس:

في الوقت الذي قتل فيه الحاكم بأمر الله، وتولي الظاهر لإعزاز دين الله الخلافة من بعده ومازال صغير السن مما أدى إلى ضعف الدولة الفاطمية وتمرد القبائل العربية؛ إذ اجتمع عرب بلاد الشام وتقاسموا البلاد فكان لحسان بن المفرج الطائي أمير قبيلة طيء العربية وقومه من الرملة إلى مصر ، ولصالح بن مرداس وقومه بني كلاب من حلب إلى عانة ، ولسنان بن عليان أمير قبيلة كلب العربية دمشق وأعمالها ، وتحالف هؤلاء الثلاثة ضد الدولة الفاطمية ، وتأتي أهمية هذا التحالف من كون أول لقاء جدي وتحالف حقيقي بين القبائل العربية في بلاد الشام وتعاونها وخاصة بين قبيلتي كلب وكلاب ، ومضى كل واحد منهم لتحقيق أهدافه[3]، في الوقت الذي كان فيه أهالي حلب يتذمرون من ولاة الفاطميين الذين أساؤوا السيرة فيها وغلب ظلمهم على العدل، وبينما كان صالح بن مرداس يشارك حلفاءه في طرد القوات الفاطمية من فلسطين وجه كاتبه سليمان بن طوق نحو حلب ، وفي الطريق إليها استولى على معرة ومصرين وتابع إلى حلب ليشتبك مع واليها.

وفي عام (415هـ/1024م) ترك صالح بن مرداس دمشق وعاد إلى حلب وعسكر أمام أحد أبوابها معتقداً أن المدينة سوف تستسلم له بمجرد وصوله إليها، وعندما لم يحصل ذلك انسحب إلى مضارب قومه وحشد مقاتلي قبيلته ومن انضم إليهم من القبائل الأخرى وقاد هذه القوات وشرع في حصار حلب يوم الأحد(17 رمضان 415هـ/22تشرين الثاني 1024م)، وقد استمر الحصار مدة ستة وخمسين يوماً، حصل خلالها خلاف بين موصوف الخادم والي القلعة، ومقدم أحداث حلب سالم بن المستفاد، حيث اتهمه موصوف بالخروج عن طاعة الفاطميين ومساندة أعدائهم، وحاك مؤامرة للتخلص منه، وعندما علم سالم بالأمر جمع الأحداث والتف الأهالي حوله، وقام بالخروج إلى صالح بن مرداس ، وطلب منه الأمان له ولجماعته، وقد حصل عليه، ففتح باب قنسرين لصالح ، وهكذا تمكن ابن مرداس من دخول حلب[4]، فاعتصم ابن ثعبان وموصوف الخادم في القلعة والقصر الملاصق لها، فحاصرتهم قوات ابن مرداس بقيادة سليمان بن طوق وسالم بن المستفاد الذي عينه صالح مقدماً لأحداث حلب ورئيساً للمدينة، بينما توجه صالح على رأس قوة لنجدة حليفه حسان بن المفرج في فلسطين ضد قوة فاطمية جديدة بقيادة الدزبري[5]، وفي أثناء غياب صالح تمكن ابن طوق ومعه القوات الكلابية بمساعدة ابن المستفاد وأحداث حلب من اقتحام القصر الملاصق وتدميره وتضييق الخناق على القوات الفاطمية المعتصمة في القلعة، حيث حفروا خندقاً قاده إلى بئر المياه فردموه، مما سبب في زيادة المصاعب

---

[1] ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، مصدر سابق، ص 183

[2] بيطار(أمينة): موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين ، مرجع سابق، ص 252

[3] ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج4، مصدر ساق، ص 350

[4] العظيمي(محمد بن علي): تاريخ حلب، تح(ابراهيم زعرور)، دمشق، 1984م، ص 280

[5] ابن العديم: زبدة الحلب، مصدر سابق، ص 326

على القوات الموجودة داخل القصر، فاستسلمت القلعة وسمح للقوات بمغادرة المدينة بعد تجريدها من سلاحها، واعتقل ابن ثعبان وموصوف الخادم والقاضي ابن أبي أسامة[1]، وبعد التغلب على الدزبري في فلسطين، عاد صالح إلى حلب ، وفي طريقه استولى على حصن عكار في طرابلس، وصيدا وبعلبك وحمص وضمها جميعها إلى دولته الناشئة، وعند وصوله إلى حلب قام بإطلاق سراح ابن ثعبان مقابل فدية كبيرة من المال، وأعدم موصوف الخادم، بينما أمر بدفن القاضي حياً في التراب، وكان ذلك في (شعبان 416هـ/تشرين الأول 1025م)[2]، وقد بقي صالح بن مرداس يحكم حلب حتى قتل مع ولده الأصغر سنة(420هـ/1029م).

الدولة في عهد نصر بن صالح:

بعد مقتل صالح بن مرداس، خسر المرداسيون حمص، بعلبك، وحصن عكار، ولم يتبق لهم إلا حلب وأعمالها، بالإضافة إلى الرحبة والحلة وبالس ومنبج، وقد نجا الابن الأكبر لصالح واسمه نصر من المعركة التي قتل بها والده، وعاد إلى حلب وفيها تقاسم الحكم مع أخيه ثمال الذي بقي في قلعة حلب، إلا أن نصر لم يكن راضياً بتقاسم الحكم مع أخيه، واخذ ينتظر الفرصة المناسبة ليستولي على القلعة وينفرد بحكم حلب، وجاءته الفرصة في عام(421هـ/1030م) وذلك في أثناء غياب أخيه ثمال عن المدينة، فاستولى على القلعة، وبالتالي انفرد بحكم الدولة[3]، وهناك عدة روايات عن غياب ثمال عن القلعة، فقد روى ابن العديم في روايته: إن زوجة ثمال تركت حلب غاضبة، وتوجهت إلى الحلة، وعند ذهاب ثمال بنفسه لمصالحتها، استغل أخوه نصر ذلك واستولى على القلعة بالقوة[4]، أما الأنطاكي فقد قال: إن ثمال ونصر قد أخرجا عيالهما من حلب إلى الحلة، عندما هاجم الروم حلب، وبعد هزيمة الروم عادا لإحضار حرمهما من الحلة، وسبق نصر بأهله وحرمه أخاه ثمال إلى حلب، واستولى عليها، وعلى القلعة، ودفع أخاه ثمالاً عنها[5].

وكانت ردة فعل ثمال تجاه أخيه أن حشد قواته وفي نيته الاستيلاء على حلب بالقوة، وعندما سمع نصر بذلك استنجد بإمبراطور الروم، وخشيةً من المخاطر والمطامع البيزنطية وضياع حلب، توسط شيوخ القبيلة بين الأخوين، وتم الاتفاق على تقسيم الإمارة إلى قسمين، قسم جزري(بالس والرحبة) يحكمه ثمال، وقسم شامي (حلب وأعمالها) يحكمه نصر[6]، وفي حلب أبقى نصر ابن المستفاد رئيساً للمدينة، ومقدماً لأحداثها كما كان في عهد صالح، وفي سنة (423هـ/1031م)، حصل خلاف بين نصر وبين ابن المستفاد، وتجمع الأحداث حول ابن المستفاد، وعندما قدم نصر لقتاله، استمالهم بالأموال، فانقلبوا إلى جانبه، فطلب ابن المستفاد الصلح، لكن نصر رفض ذلك، وقبض عليه وأودعه السجن، ثم قتله فيه خنقاً لأنه حلف ألا يجري دمه[7]، بقي نصر يحكم حلب حتى سنة(429هـ/1038م) عندما قتل على يد الدزبري.

---

[1]الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، مصدر ساق، ص 399

[2]ابن العديم: زبدة الحلب، مصدر سابق، ص 200

[3]العظيمي: تاريخ حلب، مصدر سابق، ص 329

[4]ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، مصدر سابق، ص 209

[5]الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، مصدر سابق، ص 418

[6]طقوش: تاريخ الفاطميين في شمال افريقية ومصر وبلاد الشام ، مرجع سابق، ص 321

[7]ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، مصدر سابق، ص 212

الدولة في عهد ثمال بن صالح:

فرَ ثمال من المعركة، تاركاً أخاه يلقى حتفه على يد الدزبري، وعاد مسرعاً إلى حلب لكي يستولي على الحكم فيها دون أخيه، وعند وصوله إليها سمع بمقتل أخيه، فانخفضت معنوياته، ودب اليأس في نفسه، وأدرك عدم قدرته على البقاء في حلب، لأن القوات الفاطمية كانت متوجهة إليها، فترك حلب وتوجه إلى الجزيرة لجمع بعض النجدات من القبائل المجاورة، وترك ابن عمه مقلد بن كامل المرداسي نائباً عنه في حكم القلعة، وعين رجلاً آخر من بني كلاب ، اسمه خليفة بن جابر الكعبي والياً على المدينة، وكان لهذا الرجل دور كبير في إقناع ثمال على ترك المدينة، حيث أخذ يحذره من غدر رفاقه به، وتخلي أهل المدينة عنه، الأمر الذي زاد في قلق ثمال، واصطحب ثمال معه أسرته وأسرة أخيه القتيل، وبعيد خروجه من حلب، وصلت إليها طلائع قوات الدزبري، وفرضت حصاراً على المدينة، فقام ابن جابر بفتح أبوابها وتسليم المدينة للفاطميين، لأنه لم يكن مخلصاً لثمال، بل كان على اتصال بالدزبري[1]، ةقام الزبري بمفاوضة مقلد المحاصر في القلعة، وتوصلا إلى اتفاق سلم بموجبه مقلد القلعة للدزبري، وغادر حلب ليلتحق بابن عمه ثمال في الجزيرة، وبالتالي أصبحت حلب تحت حكم الدزبري[2]، وبالتالي توحدت بلاد الشام، ولأول مرة تحت إمرة والٍ فاطمي واحد، واتخذ من دمشق مقراً له، ولم يتمكن الدزبري من الاستيلاء على القسم الجزري من إمارة حلب، وبقي الدزبري يحكم حلب حتى وفاته(433هـ/1041م)، وكان ثمال في الرقة ينتظر الفرصة التي جاءت بموت الدزبري، واختلاف الأمور ثانيةً في الشام، حيث ترك الدزبري القوي بموته فراغاً لم تستطع الدولة الفاطمية ملأه، فاستغل ثمال ذلك وتوجه إلى حلب، وبرفقته ابن عمه مقلد، وحاصر المدينة لأيام ثم دخلها وحاصر قلعتها لمدة سبعة أشهر، استسلمت له بعدها وعادت حلب للمرداسيين، وذلك في (15 صفر 434هـ/ 5 تشرين الأول 1042م)[3]، وقامت الدولة الفاطمية بعدة محاولات لاسترداد حلب من أيدي المرداسيين، لكنها أخفقت في ذلك، وقبلت بالحكم المرداسي في حلب رغماً عنها، بحيث لم يتوفر لديها قائد يتمتع بمؤهلات الدزبري، أما ثمال في حلب، فقد طلب العفو من الخلافة الفاطمية؛ ليأمن على نفسه وبلاده منها، وبالوقت نفسه لم يخطب للخليفة الفاطمي، وإنما كان يخطب للخليفة العباسي القائم بأمر الله، على الرغم من علاقات الود التي حصلت بينه وبين الفاطميين[4]، وبعد أن تمكن ثمال من إرضاء القوى الرئيسية في المنطقة بحسن سياسته، هذه السياسة التي جلبت لحلب الاستقرار والازدهار والأمان، الذي استمر إلى سنة(449هـ/1057م)، عندما أجبر ثمال على التخلي عن إمارته والتوجه إلى القاهرة بعدما ثار عليه أخوه عطية، الذي سرق الأموال التي أرسلتها الدولة الفاطمية لمساعدة البساسيري في ثورته، وبعدما تنازل للبساسيري عن الرحبة لتكون قاعدة له، وتنازل عن الرقة لمانع بن شبيب بن وثاب أمير قبيلة نمير، وأخ زوجته، الأمر الذي أثار حفيظة شيوخ بني كلاب، ووقوفهم في وجهه ، لأنه فرط بأهم قاعدتين لبني كلاب في الرحبة والرقة، وتأتي أهميتهما من كونهما الملجأ الذي يلجأ إليه بني مرداس عندما يفقدون حكم

---

[1] ابن العديم : زبدة الحلب، ج1، مصدر سابق، ص 215

[2] ابن القلانسي(حمزة بن أسد بن علي بن محمد): تاريخ دمشق، تح(سهيل زكار)، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، 1983، ط1، ص 119

[3] ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج4، مصدر سابق، ص 352

[4] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج8، مصدر سابق، ص 73

حلب، وهذا ما لاحظناه سابقاً ، فإن الدزبري استطاع الاستيلاء على حلب، لكنه لم يتمكن من الاستيلاء على القسم الجزري لإمارة بني مرداس[1].

العلاقات المرداسية الفاطمية في عهد صالح وولديه نصر وثمال:

في عهد صالح بن مرداس:

رأينا كيف استعان الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله بصالح بن مرداس لقتال حكام حلب، المترددين في الولاء له، ليرسل الحاكم بأمر الله أمراً إلى فتح الذي ثار على سيده ابن لؤلؤ، بتسليم حلب للفاطميين، وأن يسلم صالح وقومه الأعمال والضياع المتفق عليها، لأن الحاكم بأمر الله كان يريد أن تستمر العلاقة الطيبة مع بني كلاب وجذبهم إلى صفه، وبالمقابل انحاز صالح إلى الفاطميين ، وخطب للحاكم في منطقته، وبقي الأمر على حاله حتى وفاة الحاكم بأمر الله سنة (411هـ/1021م)[2]، حيث خلفه ابنه الظاهر لإعزاز دين الله الصغير في السن، وقامت عمته ست الملك بكفالته، وأعطت الأمر بالقبض على ولي عهد الحاكم بأمر الله، عبد الرحيم بن الياس، الذي كان في دمشق يحكمها باسم الحاكم بأمر الله، بينما تمكن ابنه الأكبر عبد العزيز من الفرار من دمشق وتوجه إلى صالح بن مرداس في الحلة وأقام عنده عشرة أشهر، معززاً مكرماً، غادر بعدها إلى القسطنطينية بعدما طلبت ست الملك من صالح إعادة الفارين إلى القاهرة لإنزال العقاب بهم[3]، وكان هذا الحدث أول شقاق بين صالح والخلافة الفاطمية، وأحد الأسباب التي دفعت صالح للتحالف مع زعماء القبائل العربية الأخرى ليضمن وقوفهم إلى جانبه إذا تعرض لهجوم انتقامي من الفاطميين، وفي نفس الوقت تحقيقاً لمطامحه السياسية بتأسيس إمارة مستقلة يحكمها هو وأولاده من بعده، فتوجه إلى حلب واستملكها، وشارك في قتال الفاطميين مع حلفائه في بلاد الشام لإخراجهم منها، في الوقت الذي لم يقطع صالح الدعوة للخليفة الفاطمي، وإنما أرسل كاتبه سليمان بن طوق إلى القاهرة، بعد أن استولى على حلب لمقابلة الظافر، وتقديم الطاعة والولاء له، وقبل الظافر الحكم المرداسي لحلب، وزاد في ألقاب صالح، وأرسل له خلعاً وهدايا ثمينة له ولأولاده[4]،ورغم أن الخلافة الفاطمية لم تكن راضية عن أحداث بلاد الشام، ولكن ضعفها هو الذي جعلها تسكت، وما أن استقرت الأمور للظافر واستردت الخلافة الفاطمية عافيتها، حتى قرر إعادة بلاد الشام إلى سلطته، والقضاء على حركة القبائل المتمردة، فأعد جيشاً بقيادة أنوشتكين الدزبري[5].

أما في بلاد الشام ، فقد استجدت أمور جديدة، أودت بالتحالف القبلي فيها، حيث توفي أمير قبيلة كلب، سنان بن عليان، وحدث خلاف بين ورثته على الإمارة والحكم، فلجأ ابن أخيه رافع بن أبي الليل إلى الخليفة الظاهر، فعينه أميراً على كلب خلفاً لعمه، وأقطعه دمشق وأعمالها وجميع إقطاعات عمه سنان[6].

---

[1] حسن(حسن ابراهيم): تاريخ الدولة الفاطمية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1964م، ط1، ص 237

[2] ابن القلانسي : تاريخ دمشق، مصدر سابق، ص 142

[3] المقريزي: إتعاظ الحنفاء، مصدر سابق، ص 267

[4] الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، مصدر سابق، ص 268

[5] ابن الجوزي(عبد الرحمن بن علي بن محمد): المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تح(محمد عطا، مصطفى عطا)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م، ط1، ج15، ص202

[6] الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، مصدر سابق، ص 410

وعندما دخل الدزبري فلسطين، انضم إليه رافع بن أبي الليل وقومه بني كلب، فاستنجد حسان بن المفرج الطائي بحلبفه صالح بن مرداس، الذي أحس بالخطر، وتوجه لنجدته في معركة حاسمة انسحب فيها حسان بن المفرج، ليترك صالح بن مرداس يواجه مصيره مع ولده الأصغر، وقتلا في هذه المعركة[1]، وفي تفاصيل المعركة أن فرس صالح قد وقع به ولم ينهض، فبادره رجل يدعى طريف الغزاري بطعنة، فصاح صالح ووقع على الأرض دون أن يعرفه، وعند مرور رابع بن أبي الليل بالجثة، عرفها وقطع رأس صالح وجاء به إلى أنوشتكين الدزبري، وعندما رأى الرأس، نزل عن فرسه وسجد طويلاً، يشكر الله على هذا الظفر ، ثم ركب فرسه ووضع الرأس على ركبته، ثم أرسله إلى القاهرة مع بعض الغنائم، وأرسلت جثة صالح إلى صيدا لتصلب فيها، وكان ذلك في (جمادى الأول 420هـ/أيار 1029م)، أما ابن القلانسي جعلها سنة (419هـ/1028م)، ويذكر كل من ابن العديم والأنطاي والقلانسي مقتل صالح وحده، بينما يذكر ابن الأثير مقتل صالح مع ولده الأصغر[2].

ب–في عهد نصر بن صالح :

نجا شبل الدولة نصر من المعركة ، وتوجه إلى حلب وتقاسم حكمها مع أخيه ثمال وبعد مدة لا تزيد عن السنة انفرد بحكم إمارة حلب، وغادر ثمال حلب إلى الجزيرة ، كان نصر يخشى الفاطميين وخاصة قائدهم في بلاد الشام أنوشتكين الدزبري والي دمشق، فأرسل إلى القاهرة رسوله أبو الحسن بن الأيسر حاملا معه هدية كبيرة وثمينة، فقد قاد معه مئة وخمسين رأسا من الدواب محملة بالهدايا، من ثياب وصباغات وأواني وآلات كسبها من الروم، وبعد وصول الرسول إلى القاهرة، استقبله الوزير الفاطمي أبو الحسن الجرجرائي أولا، وأعجب بالهدايا وأكرم رسول نصر وخلع عليه، ووعده بإقناع الخليفة الظاهر بمقابلته،لكن الظاهر كان غاضبا من نصر الذي عقد هدنة مع البيزنطيين إثر انتصاره عليهم قرب حلب، وبقي الرسول في القاهرة لمدة خمس سنوات دون أن يقابله الخليفة، حيث توفي الظاهر لإعزاز دين الله، وخلفه ابنه المستنصر بالله، فبدأ عهده باستقبال رسول نصر وأكرمه وخلع على سيده وزاد في ألقابه مع صك يفوضه حكم حمص وأعمالها، وبالتالي أصبح نصر يتمتع برعاية الدولة الفاطمية وتأييدها [3].

كان هذا التفويض، فاتحة شر على نصر، وبداية لنهايته، فقد جاء على حساب والي حمص الفاطمي جعفر بن كليد الكتامي، أحد أتباع الدزبري، فأخذ يحرض الدزبري على قتال نصر وأخذ حلب منه، ولما كان الدزبري يطمح في إخضاع شمال بلاد الشام وتوحيد البلاد تحت إمرته، وجد جعفر عند الدزبري إذنا صاغية، وأخذ يعمل على خلق الإضطرابات داخل أراضي حلب، ليوقظ الأحقاد بين نصر وقاتل أبيه الدزبري، الذي شرع في تنفيذ مخططه لضم شمال بلاد الشام، واعتمد على قبيلة كلب بزعامة أميرها رافع بن أبي الليل،واستأذن البيزنطيين لقتال نصر، مبدياً استعداده لدفع الجزية التي كان نصر يدفعها لهم[4]، وعند سماع نصر بزحف

---

[1]الذهبي(محمد بن أحمد بن عثمان): تاريخ الإسلام، تح(عمر التدمري)، دار الكتاب العربي، بيروت، 1993م، ط1، ص 395
-ابن تغري بردي(أبي المحاسن يوسف): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح(محمد حسين شمس الدين)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م، ط1، ج4، ص 253.

[2]ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، مصدر سابق، ص 232. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج7، ص 333

[3]ابن العيم : زبدة الحلب، مصدر سابق، ج1، ص248

[4]ابن القلاسي : تاريخ دمشق، مصدر سابق، ص75

الجيش شمالاً يريد حلب، قام بجمع قواته الخاصة مع ما أمكنه من قبيلة كلاب، وطلب نجدة أخ زوجته أمير قبيلة نمير مانع بن شبيب العقيلي، وتوجه جنوباً لملاقاة الجيش الفاطمي، وتلاقى الجيشان إلى الغرب من السلمية، عند تل يسمى تل فاس، وفي الجولة الأولى تخلخلت صفوف قوات نصر، فتراجع إلى الغرب، وقام بإعادة تنظيم قواته وترتيبها، حيث قسم الجيش إلى قسمين الأول بقيادته، والثاني بقيادة أخيه ثمال، بينما استغل الدزبري هذا الوقت وتوجه نحو مدينة حماه، ودخل المدينة ونهبها عساكره، ثم زحف بعد ذلك باتجاه نصر، وحدث اللقاء الثاني والحاسم بين الجيشين في (15شعبان 429هـ/23 أيار 1038م)، قرب قرية لطمين شمال غرب حماه، وفي أثناء احتدام المعركة، فر ثمال وأتباعه ومعه مانع بن شبيب وأتباعه، وتوجها إلى حلب، تاركين نصر وحيداً يواجه ضغط القتال، وبشكل غير متكافئ، مما أثر على نتيجة المعركة، حيث تلقى نصر طعنة في ظهره وسقط عن جواده، وأجهز عليه غلام تركي اسمه هفتكين، وقام رافع بن أبي الليل بقطع رأسه وحمله إلى الدزبري، وأرسلت جثته إلى حماه لتصلب على أسوارها[1].

في عهد ثمال بن صالح:

تابع الدزبري زحفه شمالاً، ودخل مدينة حلب بعد مقتل نصر بحوالي الشهر، وخرج ثمال منها إلى الرقة وبقي فيها ينتظر الفرصة، وذلك لكي يعود إلى ملكه في حلب، وقد خضعت حلب للحكم الفاطمي المباشر من سنة(429هـ/1038م)، حتى (433هـ/1041م) سنة وفاة الدزبري، وخلال الشهر الذي تلا وفاة الدزبري، استطاع ثمال أن يعيد حلب إلى أملاكه، وبعد سقوط قلعة حلب بيده، وصلته رسالة من الوزير الجرجرائي موقعة من الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، تمنحه ولاية حلب وبعض الهدايا الثمينة، وقد قبلت الخلافة الفاطمية بعودة الحكم المرداسي إلى حلب مرغمة، لأنه لم يتوفر لديها قائد يستطيع أن يشغل الدور الذي كان يقوم به الدزبري، كل ذلك مقابل تسليم ثمال للأموال التي تركها الدزبري في القلعة للدولة الفاطمية، ودفع مبلغ عشرين ألف دينار سنوياً جزيةً عن حلب[2].

ولم يمضِ وقت طويل حتى نشب الخلاف بين المستنصر بالله وثمال، لأن ثمال وبالرغم من علاقته الجيدة مع الفاطميين، لم يفِ بوعده، وهو إرسال كل الأموال من القلعة، بالإضافة إلى تأخره عن دفع الجزية لمدة عامين من جهة، ومن جهة أخرى عاد جعفر بن كليد ليلعب دوراً مهماً في تحريض المستنصر بالله على ثمال كما فعل من قبل، فعدَّ الخليفة تقصير ثمال خروجاً عليه، وأعطى الأمر إلى واليه على دمشق للعمل على استرداد حلب من المرداسيين، كان والي دمشق الفاطمي هو ناصر الدولة أبو محمد الحسن بن الحسين بن حمدان، وتوجه إلى حلب على رأس جيش قدرته المصادر بخمسة آلاف مقاتل، وكان برفقته شجاع الدولة جعفر بن كليد الكتامي، وعدد كبير من المرتزقة أغلبهم من قبيلة كلب، وفي طريقه إلى حلب استولى على حماه ومعرة النعمان، وعند وصول القوات إلى مشارف حلب، حاول ثمال التصدي لها، فأخفق وتراجع إلى المدينة ليدافع عنها من خلف الأسوار، وعسكر ابن حمدان بجانب قرية صلدي الواقعة قرب نهر قويق جنوب حلب، وذلك من أجل إعادة تنظيم قواته[3]، وفي إحدى الليالي من عام (440هـ/1048م)، تساقطت الأمطار بشكل مفاجئ

---

[1]شلبي(أحمد): موسوعة التاريخ الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1976م، ط1، ج5، ص 167

[2]النويري(أحمد بن عبد الوهاب): نهاية الأربر في فنون الأدب، تح(محمد أمين)، مطابع الهيئة المصرية العامة، القاهرة، 1992م، ط1، ج28، ص 212

[3]ابن كثير(اسماعيل القرشي): البداية والنهاية، تح(حامد طاهر)، دار الفجر للتراث، القاهرة، 2003م، ط1، ج11، ص 50

وكانت غزيرة وعاصفة وفاض النهر، وداهم السيل معسكر ناصر الدولة، وسحب معه معظم المعدات والعتاد، وغرق بعض المقاتلين، فرحل ناصر الدولة عائداً إلى دمشق، ولكن جعفر بن كليد لم ينسحب معه، بل بقي يعبث بأراضي حلب، فخرجت إليه قوة كلابية بقيادة مقلد بن كامل، ولحقت به في كفر طاب قرب حماه، واشتبكوا معه، وقتلوا جعفر بن كليد، ودخلوا حماه، ثم ساروا إلى حمص ودخلوها[1]، كان ثمال يتوقع أن يرسل إليه الخليفة حملة جديدة ضده، لذلك حاول الحصول على مصالحة معه، وأرسل رسولاً إلى القاهرة لمقابلة الخليفة وتقديم الاعتذار، لكن أجواء التشنج والحرب غلبت أجواء السلم والصلح فيها، وجرى صرف الرسول من دون إعطائه جواباً، وأمر الخليفة بإعداد حملة جديدة ضد ثمال، وتم إعداد جيش كبير قُدِّر بحوالي الثلاثين ألفا من المقاتلين، وأسندت قيادته إلى الخصي رفق الخادم مع تعيينه والياً على دمشق وحلب إذا استردها من المرداسيين، وزاد الخليفة في ألقابه، وخرج شخصياً إلى خارج القاهرة لتوديع هذا الجيش الكبير معلقاً آمالاً كبيرةً على نجاحه في مهمته[2]، ووصل الجيش إلى مشارف حلب في (22 ربيع الأول 441هـ/ 24آب 1049م)، بعد مسير خمسة أشهر من مغادرته القاهرة، وكانت أحواله سيئة جداً، وبدت عليه علامات الترهل بسبب نوعية تركيبته، فقد ضم في صفوفه أعداداً غير متجانسة ومتعادية من المغاربة والمشارقة والعبيد، والمرتزقة الكبيين والطائيين، كما كان قائده ضعيفاً تجاوز الثمانين من العمر، وعندما رأى ثمال هذا الجيش الكبير، أدرك بأنه لا يستطيع الوقوف بوجهه، فلجأ إلى شراء المرتزقة الكلبيين ورسم لهم خطة للخروج من المعركة لخلخلة صفوف الجيش الفاطمي، وما أن بدأت المعركة حتى نفذ الكلبيون الخطة وهربوا من المعركة، فتبعهم بعض العساكر، ولم يستطع رفق الخادم السيطرة على الأمور، وبالوقت نفسه تعرض لهجوم صاعق من فرسان ثمال، فأصيب في رأسه وحمل أسيراً إلى حلب مع عدد كبير من مقاتلي جيشه، ومات فيها بعد ثلاثة أيام[3]. ورغم انتصار ثمال على الجيش الفاطمي، إلا أنه خشي من غضب الخليفة مجدداً، ورأى أنه من الأفضل التودد والصلح، فأرسل وفداً إلى القاهرة على رأسه علي بن أحمد الأيسر، ومعه زوجته السيدة وابنهما وثاب، حاملين الهدايا الثمينة ومبلغ (40) ألف دينار مقابل جزية عامين، وبادر إلى إطلاق سراح جميع الأسرى الفاطميين، فقبل الخليفة اعتذار ثمال، واستقبل السفارة وأقره على حكم حلب، وبالتالي أمن لبلده الاستقرار الذي دام حتى سنة (448هـ/1057م)، حين قامت ثورة البساسيري وما تلته من أحداث، وتنازل ثمال عن حلب للفاطميين، ورحل إلى القاهرة سنة (449هـ/1057م) [4].

ضعف الدولة المرداسية وسقوطها:

قام ثمال بتسليم حلب إلى مكين الدولة الحسن بن ملهم، وسلم القلعة إلى ركن الدولة علي بن عقيل سنة(448هـ/1057م)، وتوجه إلى القاهرة بعد أن أقطعه الخليفة بيروت وعكا وجبيل بدلاً عنها، بينما توجه أخوه عطية إلى بلدة بالس، وهي المدينة الوحيدة التي بقيت بيد المرداسيين، وبقيت الأحوال على ماهي عليه حتى سنة(451هـ/1059م) عندما قتل البساسيري، فتوجه عطية إلى الرحبة واستولى عليها، وأخذ منها كل ماتركه البساسيري من أموال وسلاح، وهذا ما شجع الكلابيين للعمل على استرداد حلب[5]، لكن الكلابيين لم يعتمدوا

[1] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج8، ص 71
[2] ابن العديم: زبدة الحلب، مصدر سابق، ج1، ص 225
[3] ابن القلانس: تاريخ دمشق، مصدر سابق، ص 86
[4] العظيمي: تاريخ حلب، مصدر سابق، ص 178
[5] ابن العديم: زبدة الحلب، مصدر سابق، ج1، ص 274

على عطية، بل استدعوا محمود بن نصر، الذي كان يطالب بالإمارة لنفسه، ربما بسبب عدم التأكد من نسب عطية بن طرود التي طلقها صالح بن مرداس وتزوجها مرتضى الدولة نصر بن لؤلؤ، حاصر محمود حلب سنة (42هـ/1060م)، لكنه وجد نفسه غير قادر على دخولها بالقوة، وبالوقت نفسه قدم جيش فاطمي من دمشق لنجدتها، فتراجع عنها نحو الشرق، وعند وصول القوات الفاطمية التي كانت بقيادة ناصر الدولة الحمداني، توجهت نحو معسكر محمود، واشتبكوا معه في معركة انهزمت على إثرها القوات الفاطمية، ووقع قائدها في الأسر وذلك في (3رجب 452هـ/30آب 1060م)[1]، وعلى إثر خلاف بين ابن ملهم وأحداث حلب، قام باستدعاء عطية بن صالح، لكنه غادر المدينة باليوم نفسه، بعدما وجد نفسه غير قادر على ضبط الأمور فيها، وبناءً عليه دخلها محمود بن نصر في (2شعبان 452هـ/ 28أيلول 1060م).

واستسلم ولاتها الفاطميين له، فأرسلهم جميعا مع قواتهم إلى القاهرة بعدما أحسن إليهم[2]، أما في القاهرة فقد غضب الخليفة المستنصر بالله واسترد من ثمال ما أقطعه مقابل حلب، وأبدى له استعداد القاهرة لدعمه بالمال والسلاح، إذا أراد التوجه إلى حلب، وقبل ثمال فزوده بالمال والسلاح وزاد في ألقابه، وبعد وصول ثمال إلى حمص، راسل شيوخ قبيلته يطلب مساعدتهم فاستجاب له الكثير منهم، وزحف باتجاه حلب وشرع في حصارها[3]، طلب محمود نجدة أخواله بني نمير، فاستجابوا له، مما أجبر ثمال على ترك حصار المدينة والابتعاد عنها، فقام محمود بمهاجمة معسكر عمه، لكنه هزم ورجع إلى حلب، ومن جديد توسط شيوخ القبيلة بين ثمال وابن أخيه محمود، وتوصلوا إلى تسوية قبل محمود بموجبها ترك حلب لعمه مقابل(500,000)دينار، وانسحب منها ودخلها ثمال في (ربيع الثاني 453هـ/نيسان 1061م)[4]، لكنه لم يعمر طويلاً بعدها، فقد توفي في العام التالي (454هـ/1062م)، وأثناء مرضه استدعى أخاه عطية وعينه خليفة له، مما أغضب محمود بن نصر الذي يعتبر نفسه أحق من عمه في حكم حلب، وهو الذي استردها من الفاطميين، وكان تنازله عنها لعمه ثمال على أساس ان يكون خليفة له، وعندما رفض عطية ذلك، قاد محمود قواته في(454هـ/1063م)، وحاصر حلب، فقام عطية بطلب النجدة من الأمير هارون بن خان أمير التركمان الذين دخلوا حلب في أواخر حكم ثمالن وعندما توجه ابن خان إلى حلب، تراجع محمود عن محاصرتها، فخاف عطية من ابن خان، وطلب من أحداث حلب نهب معسكره، فرحل ابن خان عن حلب، واتصل بمحمود بن نصر يعتذر منه، وعرض عليه المساعدة في استرداد حلب، وعادا معاً إلى حلب، وهزم عمه عطية الذي توجه إلى الرقة فلحقه إليها، فهرب عطية إلى القسطنطينية وبقي فيها حتى وفاته، وبذلك عاد محمود إلى حكم حلب للمرة الثانية أواخر سنة (455هـ/1063م) [5]، وقام محمود بمكافأة ابن خان بإقطاعه معرة النعمان، وتصفه المصادر بالشجاعة والجود والكرم، وفي عهده نشط التركمان ضد الدولة البيزنطية، وشارك محمود في بعض الغزوات، وفي عام (462هـ/1069م) وصل السلطان السلجوقي ألب أرسلان إلى حلب وحاصرها، ولكنها صمدت أمامه، وخرج إليه محمود بن نصر ومعه والدته وقابلا السلطان في معسكره، وقدما له الطاعة والولاء، فأقره على حلب شرط

---

[1] ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مصدر سابق، ج4، ص 353

[4] العظيمي: تاريخ حلب، مصدر سابق، ص 179

[5] الذهبي: سير أعلام النبلاء، تح(شعيب الأرناؤوط، محمد نعيم عرقسوسي)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1983م، ط1، ج17، ص 376

الولاء للخلافة العباسية[1]، توفي محمود سنة (467هـ/1075م)، وخلفه في حكم حلب ابنه نصر بن محمود وكان سكيراً، وفي إحدى جلسات سمره وشربه، ثمل وخرج إلى التركمان الذين ساعدوا أباه على دخول حلب، يريد نهبهم فقاموا بقتله عام(469هـ/1077م)، وملك حلب بعده أخوه سابق بن محمود، لكنه تنازع مع أخيه وثاب على الحكم، واستنجد وثاب بالسلطان السلجوقي ملكشاه، فأرسل إليه مساعدة بقيادة مسلم بن قريش العقيلي، فحاصر المدينة سنة(473هـ/1081م)، وقام الشريف الحسن بن هبة الله الحسيني مقدم الأحداث فيها بفتح أبوابها، ودخل مسلم واستسلم له سابق ووثاب وسلما القلعة له، وبذلك زالت الدولة المرداسية لتقوم مكانها الدولة العقيلية[2].

[1]ابن العماد(عبد الحي بن أحمد): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح(محمود الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط)، دار ابن كثير، دمشق، 1988م، ط1، م5، ص 99

[2]أبو الفداء: مختصر أخبار البشر، مصدر سابق، ج4، ص 37

خاتمة:

توصل البحث إلى عدد من النتائج أهمها:

– رغم اعتناق بني مرداس المذهب الشيعي، فقد كانوا يعترفون بالتبعية للدولة الفاطمية حيناً، ويسعون لإرضاء البيزنطيين حيناً آخر.

–يلاحظ من خلال هذا البحث قيام بني مرداس بدفع الجزية السنوية للبيزنطيين بالإضافة إلى عقد اتفاقيات وصداقات معهم.

–رغم علاقة بني مرداس بالفاطميين والبيزنطيين، إلا أن هاتين الدولتين كانتا على استعداد للتخلي عن صداقة بني مرداس لقاء مكاسبهم ومصالحهم، مما يدفع المرداسيين للانحياز نحو السلاجقة.

–وفي النهاية لا بد من الإشارة إلى أنه من أهم أسباب سقوط المرداسيين أن بني كلاب لم يوحدهم أمير، ولم يتمكن أحد من جمع كلمتهم، ورغم طابع البداوة للمرداسيين، إلا أن قوتهم ظهرت على مسرح الأحداث كقوة فاعلة في تلك الفترة، بالإضافة إلى قدرتهم على توطيد مفهوم الدولة كمفهوم عربي بدوي للحكم.

المصادر والمراجع:

المصادر:

1–ابن الأثير(محمد بن محمد الشيباني): الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، 1997م، ط1، ج7.

2–الانطاكي(يحيى بن سعيد): تاريخ الأنطاكي، تح(عمر التدمري)، جروس بروس، طرابلس ، ط1، 1990م.

3–ابن تغري بردي(أبي المحاسن يوسف): *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة*، تح(محمد حسين شمس الدين)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1992م، ج4.

4–ابن الجوزي(عبد الرحمن بن علي بن محمد): *المنتظم في تاريخ الأمم والملوك*، تح(محمد عطا، مصطفى عطا)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1992م، ج15.

5–ابن حوقل(أبو القاسم النصيبي): *صورة الأرض*، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط1 ، 1979م.

6–ابن خلدون(عبد الرحمن): تاريخ ابن خلدون، مراجعة(د.سهيل زكار)، *دار الفكر*، بيروت، ط1، 1988م، ج4.

7–ابن خلكان(أحمد بن محمد بن أبي بكر): *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*، تح(إحسان عباس)، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ج2.

8–الذهبي(محمد بن أحمد بن عثمان): *تاريخ الإسلام*، تح(عمر التدمري)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1 ، 1993م.

9–ابن العديم(عمر بن أحمد بن أبي جرادة): *زبدة الحلب من تاريخ حلب*، تح(سهيل زكار)، دار الكتاب العربي، دمشق، ط1، 1997م، ج1.

10-العظيمي(محمد بن علي): تاريخ حلب، تح(ابراهيم زعرور)، دمشق، 1984م.

11-ابن العماد(عبد الحي بن أحمد): *شذرات الذهب في أخبار من ذهب*، تح(محمود الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط)، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 1988م، م5.

12-الغزي(كامل البالي الحلبي): *نهر الذهب في تاريخ حلب، تح*(محمود فاخوري)، دار القلم العربي، حلب، ط1، ، 1993م، ج2.

13-أبو الفداء(عماد الدين اسماعيل): *المختصر في أخبار البشر*، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (د.ت)، م1.

14-القلقشندي(أحمد بن علي): *صبح الأعشى في صناعة الانشا*، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط1، 1987م، ج4.

15-ابن القلانسي(حمزة بن أسد بن علي بن محمد): تاريخ دمشق، تح(سهيل زكار)، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 1983م.

16-ابن كثير(اسماعيل القرشي): البداية والنهاية، تح(حامد طاهر)، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط1، 2003م، ج11.

17-المقريزي(أحمد بن علي)*:إتعاظ الحنفاء بأخبار الائمة الفاطميين الحنفاء*، تح(جمال الدين شيال)، دار الفكر، القاهرة، (د.ت)

18-النويري(أحمد بن عبد الوهاب): *نهاية الأربر في فنون الأدب*، تح(محمد أمين)، مطابع الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ط1، 1992م، ج28.

المراجع:

1-بيطار(أمينة): *موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين*، دار دمشق للطباعة، بيروت، ط1 ، 1980م.

2-حسن(حسن ابراهيم): *تاريخ الدولة الفاطمية، مكتبو النهضة المصرية*، القاهرة، ط1، 1964م.

3-زكار(سهيل): إمارة حلب، دار الكتاب العربي، دمشق، د.ط، د.ت.

4-زكريا(أحمد وصفي)، عشائر الشام، دار الفكر، دمشق، ط1، 1983م، ج1،

5-شلبي(أحمد): موسوعة التاريخ الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط1 ، 1976م، ج5.

6-طقوش(محمد سهيل): تاريخ الفاطميين في شمال افريقية ومصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، ط1 ، 2001م.

7-عبد المولى(محمد أحمد): بنو مرداس الكلابيون في حلب، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1، 1985م.